لغتنا الجميلة .. مـــاض مشرق وحاضر مغرب!

أ.د.علاء إسماعيل الحمزاوي

مقدمة

أعدّت هذه الورقة البحثية ليشارك بها صاحبها في المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية بدولة الإمارات.دبي، وهي تتناول لغتنا الجميلة وما واجهها من تحديات عبر تاريخ الأمة ما بين ماضيها المشرق وحاضرها المغرب من خلال التثاقف مع اللغات الأخرى، وتضم الورقة ـ بجانب المقدمة ـ مبحثين: الأول: نعرض فيه للغتنا الجميلة في ماضيها المشرق، والمبحث الآخر يتناول حاضرها المغرب، وأود أن أقف في هذه المقدمة عند ثلاثة مفاهيم: الماضي المشرق، والحاضر المغرب، والتثاقف اللغوي.

الماضي المشرق نعني به صورة العربية في العصور المزدهرة للثقافة والحضارة الإسلامية، ففي تلك العصور كان التحدي والتأثير لصالح الثقافة الإسلامية واللغة العربية في الأمم الأخرى ولغاتها، و(المشرق) مأخوذ من الإشراق وهو البروز والظهور والسطوع، ومنه إشراق الشمس، أما الحاضر فـ(مغرب)؛ لأن التحدي الذي واجهته لغتنا الجميلة فيه لم يكن لصالحها ولا لصالح الثقافة الإسلامية بعامة، بل صارت الثقافة الإسلامية بمختلف مظاهرها بمنأى عن التأثير العالمي، فـ(المغرب) لغةً من الفعل (أغرب) بمعنى: (غرَب) الذي منه غروب الشمس، وبمعنى: (نحّى) أي (أبعد)، وبمعنى (صار غريبا)١، وأما التثاقف اللغوي ـ ويقال: المثاقفة اللغوية ـ فهو إحداث تأثير وتأثر بين لغة وأخرى، كأن تدخل كلمات من كل لغة في قاموس اللغة الأخرى، أو تقتحم لغةٌ لغةً أخرى، فتُستَعمل على ألسنة أهلها كأنها لغتهم الأصلية، والتثاقف اللغوي مع العربية له صورتان: صورة الماضي المشرق، وصورة الحاضر المغرب٢.

المبحث الأول
لغتنا الجميلة في ماضيها المشرق

لعل من نفل القول أن اللغة هي أداة التواصل بين أفراد المجتمع، ووسيلة التعبير فيما بينهم، وهي كائن حيّ، تتطور تبعا لتطور متحدثيها والأحوال المحيطة بها، هي وعاء للفكر والثقافة والحضارة، وهي مظهر من مظاهر المثاقفة بين الأمم، كما أنها وعاء للتاريخ؛ فهي حلقة وصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وقديما قال الجاحظ:«إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبلّدت نفسه وفسد حسّه .. واللسان إذا أكثرت تقليبه رق ولان، وإذا أقللت تقليبه وأطلت إسكاته جسأ وغلُظ»٣، فالقول هو اللغة، سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة أم إشارة أم إيحاءً أم رمزا، ويُنسَب للغوي دي سوسير أن «اللغة المشتركة تكون مسئولة إلى حدّ ما عن الوحدة العرقية»٤.

ومن ثم فإن العناية بها والحرص عليها مظهر حضاري ومظهر من مظاهر الانتماء للوطن وجزء من الهوية الذاتية والثقافة القومية؛ وهذا ما جعل الآخر يتمسك بلغته شفاهة وكتابة، ويعمل على نشرها في كل مكان، وهذا ما يحدث للإنجليزية والفرنسية، فالإنجليزية هي اللغة العالمية الأولى، والفرنسية أكثر انتشارا في أفريقيا، ومن نتائج تمسك الآخر بلغته أن الفارق عندهم بين لغة النص المكتوب ولغة الخطاب اليومي المنطوق فارق ضئيل.

فإذا ما جئنا إلى لغتنا الجميلة ـ والحديث عنها ذو شجون ـ نجد أنها لغة مكفولة بالحفظ؛ لأنها لغة دين قيّم ومُثُل أخلاقية عليا، وهي إحدى أواصر الربط بين العرب (الدين واللغة والعروبة)، وهي أغنى لغات العالم في الثروة اللفظية، وصفها المستشرق الفرنسي إرنست رينان بأنها لغة بدأت فجأة على غاية الكمال، وهذا أغرب ما وقع في تاريخ البشر، فليس لها طفولة ولا شيخوخة٥، وقال عنها الألماني فريتاغ: «إنها أغنى لغات العالم»، ووصفها وليم ورك بأن لها ليناً ومرونةً يمكنانها من التكيف وفقاً لمقتضيات العصر٦، ونعتها عميد الأدب

العربي٧ بأنها لغتنا الوطنية، نتعلمها ونعلّمها؛ لأنها جزء مقوّم لوطنيتنا وشخصيتنا العربية، نقلت إلينا تراث آبائنا وتنقل تراثنا إلى الأجيال المقبلة، وهي أداتنا في فهم بعضنا البعض، وبها يعاون بعضنا بعضاً على تحقيق حاجاتنا العاجلة والآجلة، وعلى تحقيق منافعنا الخاصة والعامة، وعلى تحقيق مهمتنا الفردية والاجتماعية في الحياة إذا كانت لنا مهمةٌ في الحياة، ونحن نصطنع هذه الأداة ليفهم بعضنا بعضاً كما قلنا، ولنفهم أنفسنا أيضاً، فنحن إنما نشعر بوجودنا وبحاجاتنا المختلفة وعواطفنا المتباينة وميولنا المتناقضة حين نفكر، ومعنى ذلك أننا لا نفهم أنفسنا إلاّ بالتفكير، ونحن لا نفكر في الهواء ولا نستطيع أن نعرض الأشياء على أنفسنا إلاّ بصورة في هذه الألفاظ التي نقدرها في رؤوسنا ونُظهر منها للناس ما نريد، ونحتفظ منها لأنفسنا بما نريد، فنحن إذاً نفكر بهذه اللغة، ونحن إذاً لا نغلو إن قلنا إنها ليست أداةً للتعامل والتعاون الاجتماعي فحسب، وإنما هي أداةٌ للتفكير والحس والشعور بالقياس إلى الأفراد من حيث هم أفراد، وإذا كان هذا حقاً، فنحن نتعلم اللغة العربية ونعلمها لأنها ضرورةٌ من ضرورات حياتنا الفردية والاجتماعية، ووسيلة أساسية إلى منافعنا مهما تختلف قرباً وبعداً ويسراً وعسراً، وإذاً فنحن لا نتعلم اللغة العربية ولا نعلّمها لأنها لغة الدين فحسب، وإنما نتعلمها ونعلمها لأنها أوسع من ذلك وأشمل وأعمّ، ونحن لا نتعلّم اللغة العربية ونعلّمها لأنها لغة القدماء من العرب والمستعربين، وإنما نتعلمها ونعلّمها لأنها لغتنا، ولأنها لغة الأجيال المقبلة أيضاً، أو لأننا نريد أن تظل لغة هذه الأجيال.

وقال د.هدسون Hudson عن بعض مواصفات اللغة العربية: «تتمثّل الاختلافات بين الثقافات المختلفة بتحديد المسافة التي تتلاءم مع درجة معينة من التضامن، فالمسافة التي يحدّدها العرب – مثلاً – غالباً ما تكون أقصر من المسافة التي يحدّدها الأميركيون، وقد أُجريتْ لتدعيم هذا الإدّعاء أبحاث للمقارنة بين الطلاب العرب والطلاب الأميركيين في جامعة أمريكية، في هذه الدراسة طلب من الطلاب أن يتحدّثوا معا في أزواج في غرفة يمكن ملاحظتهم فيها دون علمهم، وقد تمّ تسجيل حركاتهم ودرجة اقترابهم من بعضهم بعضاً عند الجلوس واتجاه أجسامهم ومقدار نظرهم إلى بعضهم بعضاً ومقدار ارتفاع أصواتهم ومقدار تلامسهم... خاطب العربُ العربَ والأمريكيون الأمريكيين، وعند مقارنة النتائج وُجد أنّ العرب يواجهون بعضهم بطريقة أكثر مباشرة من الأميركيين... وأنّهم يقتربون من بعضهم في جلوسهم أكثر من الأميركيين، وأنّهم أكثر استعداداً لملامسة بعضهم بعضاً والنظر مباشرة في عيون بعضهم بعضاً، وتخاطبوا بصوت أعلى من أمثالهم من الأمريكيين، وقد تضمّنت هذه التجربة عدداً من المتغيّرات غير المسافة، تشترك كلّها بطريقة أو بأخرى في تحديد علاقات القوّة والتضامن بين الأفراد، وقد تؤدي مثل هذه الاختلافات الثقافية بين الأمريكيين وبين العرب إلى سوء تفاهم شديد بين الطرفين»٨.

ويبدو من كلام هدسون أن أبرز خصائص العربيّة، هي جماعيتها وتلاحم أبنائها وتضامنهم واقترابهم من بعضهم البعض حتى التلاصق والتوحد، وهذا دليل يفصح عن أنّ اللغة العربيّة ليست أمراً عارضاً أو شيئاً يمكن تبديله كلما خطر للبعض خواطر أو نزعات أو ميول أو تأثّرات بعامل من العوامل، العربيّة هي صنو الحياة، زمن نشوئها مرتبط بأسباب عرف بعضها والبعض الآخر لم يعرف حتى الآن أو لم يتمّ الإقرار به من بعض الباحثين، وفي الأحوال كلّها ثمّة من يرى في العربيّة تماثلاً للناس أنفسهم، لا يكاد يميّز بينهما، حتى أصبحت «بنية ذهنيّة، تكوّنت من نوازع نفسيّة طبيعيّة، تراصفت تاريخياً، فغدت بمثابة بوتقة تصهر ما يوضع فيها وتشكّله وفاق طابعها، حين ملاءمته للصهر، فيكون له منحى خاص في الحوار والتعبير والسلوك والنظرة إلى الواقع وما بعده من آفاق وتطلعات تتجاوز المحسوسات، إنّها النفس العربيّة بكل ما فيها من انعطافات ونتوءات٩.

وقد طبعت العربيّة شخصيّة العرب فيما قبل الإسلام بطوابع خاصة، بقيت فيهم، تظهر في التعبير عن أنفسهم والالتصاق ببيئتهم وكتابة إبداعهم وإقامة الحضارات العديدة، وهذا ما يفسّر أهميّة الكلمة لديهم، فلقد اشتهروا بها، وكان شعرهم الديوان الرئيس الذي برعوا فيه؛ ولذلك كان

التفوّق في الكلام وصناعته وقوله يساوي تفوّق الأفراد وريادتهم.

وقد استطاع العرب الأوائل بفضل العربية أن يستعربوا العالم من خلال نشر الثقافة الإسلامية بمختلف مظاهرها بعد أن نجحوا عبر هذه اللغة في إحداث نوع من التثاقف مع ثقافات الأمم الأخرى وحضاراتها، فبعد وفاة رسولنا الكريم (بوقت قصير وجد العرب أنفسهم قوّامين على أمم ذات حضارات عريقة لم يعهدوها وثقافات عميقة لم يعرفوها؛ حيث كانت الثقافة الساسانية في العراق وفارس، والثقافة الرومية واليونانية في الشام ومصر، فضلا عما كان سائدا من تثاقف بين الثقافة الهندية والثقافة الفارسية من ناحية، والثقافة الرومية والثقافة المصرية من ناحية ثانية، والثقافة العراقية والثقافة السُّريانية في الشام من ناحية ثالثة، والثقافة العبرية والثقافة العراقية من ناحية أخرى.

وكان على العرب أن يختاروا أحد أمرين: إما أن يكونوا أصحاب رسالة لا تستند إلى ثقافة تتثاقف مع تلك الثقافات، وهذا الأمر يوهن العرب وينعت الإسلام بالتناقض، وإما أن يسلكوا الطريق التي تليق بأمة قائدة صاحبة رسالة سامية، فيسعوا جاهدين إلى إنشاء ثقافة قومية يجعلون بها الرسالة السامية مقبولة لدى المغلوبين المثقفين، وقد اختار العرب الطريق الثاني، فأقاموا ثقافة إسلامية واسعة بفضل القرآن الكريم؛ حيث شرعوا في بيان معاني القرآن للأمم الأخرى؛ فأبدعوا علوما تسهم في بيان المقصود القرآني من تفسير وحديث وإعجاز وفقه وأصول ونحو وبلاغة ولغة وغير ذلك مما يسمى بـ«علوم القرآن»١٠، وقد كتبوا تلك العلوم بلغة القرآن، ثم صارت لهم ثقافة ضخمة في مختلف العلوم، وأضحت لهم حضارة ذات آفاق.

لكن هذه الثقافة أقلقت الحاقدين، فأخذوا يلوون (عنق النص) لإثبات أن مردها التثاقف مع الثقافة اليونانية١١، واستثمر هؤلاء ازدهار حركة الترجمة في عهد المأمون، فتعالت أصواتهم بأن للمنطق اليوناني والفلسفة اليونانية أثرا كبيرا في العلوم الإسلامية، ولاسيما علمي الفقه والنحو وأصولهما، وهو زعم رفضه الفكر العربي الأصيل، وقد نشأت عن ذلك مشكلات ومحن كمحنة خلق القرآن.

لكن هذا لم يمنع أن تثاقفا تـمّ بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى الموجودة في فارس ومصر والشام وبلاد الروم، وكان ذلك التثاقف لصالح الثقافة الإسلامية بمختلف مظاهرها، ومنها التثاقف اللغوي؛ حيث سادت العربية في كثير من بلدان العالم بفضل الفتح الإسلامي والتبادل التجاري والجوار الجغرافي، وقد أسهم المسلمون الأعاجم ولاسيما اللغويين والنحويين في نشر هذه اللغة بعد أن فقهوها، حتى صارت لغة رسمية في بعض البلاد كمصر والشام والعراق بعد أن محت لغاتها الأصلية، كما تركت أثرا كبيرا في لغات أخرى كالفارسية والتركية والأسبانية، فضلا عن أن لغات أعجمية كثيرة استخدمت الأبجدية العربية في الكتابة كاللغة الفارسية١٢، وحينما كان للعرب حضارة ذات آفاق كانت العربية هي اللغةَ العالميةَ الأولى!!

ثم تراجعت الثقافة الإسلامية بما فيها الثقافة اللغوية في عصور الركود الفكري والضعف السياسي الذي بدأ بسقوط الدولة العباسية في المشرق والدولة الأندلسية في أوربا، ثم ما لبثت أن استردت الثقافة الإسلامية مكانتها في ظل الخلافة العثمانية للعالم الإسلامي، حيث استطاعت الدولة العثمانية أن تسود معظم بلدان العالم، فوصلت إلى أوربا الشرقية وأسيا وأفريقيا، وحدث تثاقف بين الثقافة الإسلامية والثقافات الموجودة آنذاك، وبفضل قوة الخلافة العثمانية كانت السيادة لصالح الثقافة الإسلامية، حيث سادت في تلك البلدان بعد أن أبادت الثقافات المتعارضة، وكان من مظاهر السيادة انتشار لغتنا الجميلة في تلك المناطق من العالم، فانتشرت في شعوب كثيرة مثل ألبانيا والبوسنة وكوسوفا، فضلا عن اعتماد دول ومناطق كثيرة الأبجدية العربية في كتابة لغاتها، كالتركية والأردية والأفغانية والسواحلية، ولا يزال بعضها إلى الآن يكتب بالحرف العربي١٣.

إضافة إلى ما سبق فإن التثاقف الذي كان لصالح العربية قد أثمر عن دخول كلمات عربية كثيرة في عدة لغات كالإنجليزية والألمانية والأسبانية والبرتغالية والفرنسية والتركية، مثل كلمات: (قطن، وقهوة، وكيمياء، وكحول، وجبر).

المبحث الثاني
لغتنا الجميلة في حاضرها المغرب!

لعل أحدا لا يختلف مع القول بأن العربية ليست كيانا جامدا لا حياة فيه، وإنما هي أشبه بالكائن الحي، ينمو ويتطور، كما يكون عرضة في أوقات الضعف والانكسار للوهن والمرض، وقد يصاب بالشيخوخة وقد يدخل في طور الاحتضار، ولكن لغتنا الجميلة في كل الأحوال ـ سرائها وضرائها ومنشطها ومكرهها ـ لم تفقد هويتها؛ لارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم، فهي وعاؤه العظيم وأداؤه التعبيري المعجز، فضلا عن طبيعتها الذاتية وكثرة مفرداتها، والروافد التي تغذيها وتجدد نسيجها، مثل القياس والاشتقاق والنحت والاقتراض والمجاز؛ مما ينفي عنها تهمة التحجر والعجز وضيق المدى، كما يزعم الزاعمون.

ومع بداية العصر الحديث بدأ عصر التثاقف العربي مع الغرب، وهو عملية ضرورية، لكنها ـ كما يرى بعض الباحثين ـ افتقرت إلى أمرين: الأول: وجود قراءة واعية للتراث، فليس المهم مجرد وجود تراثنا بين أيدينا، ولعلنا نتذكر أن معرفتنا بتراثنا تحقيقا ونشرا ودراسة تمت على أيدي المستشرقين، بصرف النظر عن أهدافهم من وراء ذلك١٤، أما الأمر الآخر فإن هذا التثاقف لم يكن اختيارا حرا من مثقفينا، وإنما تم تحت سلطة الاحتلال، ولم يكن ممثل الثقافة الأخرى ليس موضوعا فكريا مطروحا للفهم، وإنما كان موجودا عسكريا مطروحا للمقاومة.

وهذه الازدواجية جعلت تثاقفنا مع الآخر مجرد غزو ثقافي، وتبعية فكرية وحضارية له، وبرز على الساحة ما يعرف بـــ(ثقافة القطب الواحد)، وارتفعت أسهمها على حساب الثقافات الأخرى، ومنها الثقافة العربية التي اصطدمت بها في بعض خصوصياتها؛ ومن ثم تعالت أصوات عربية تنادي بضرورة (حوار الحضارات) ردا على ما أسماه الآخر بـ(صراع الحضارات) أو (صدام الحضارات).

ويعنينا هنا ما أسميناه التثاقف اللغوي، وهو لم يكن لصالح العربية، بل أسهم ذلك التثاقف في أن يعزل لغتنا الجميلة عن مواكبة الركب الحضاري، وألا يجعلها لغة توحيد وتفاهم للعرب والمسلمين؛ حيث واجهت الفصحى مثاقفتين: مثاقفة داخلية مع العاميات العربية، ومثاقفة خارجية مع الثقافة العالمية أو ما يسمى بـ(العولمة الثقافية)، وكلتاهما بمثابة غزو ثقافي للفصحى.

فهذه اللغة الحضارية أضحت مهمّشة من الخطاب اليومي في الشارع العربي، وربما تهمّش مستقبلا من النص المكتوب؛ حيث حلت محلها لهجات عامية متباينة في بعض الخصائص اللغوية؛ بسبب ضعف سياسي وحضاري وثقافي استشرى في المجتمعات العربية، ومع أن ثمة نظرية ترى أن هذه العاميات خرجت من رحم الفصحى، فإن الأمر خطير؛ لأن مستقبل اللغة جزء لا يتجزأ من واقع الأمة ومستقبلها ازدهارا وضعفا، ولقد أصاب ابن حزم في استنتاجه حول تراجع اللغة في حال ضعف المجتمع ودخوله في الفوضى والشرذمة؛ حيث قال: «إنّ اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دور أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم أو بنقلهم من ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنّما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوّة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم، وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوّهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذلّ وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود علومهم»١٥.

ويقول راهب فرنسي محذرا من انتشار العامية الفرنسية: «إن تسليم زمام الإدارة إلى أشخاص لا يحسنون اللغة القومية يؤدي إلى محاذير كثيرة، وإنّ ترْكهم خارج ميادين الحكم يخالف مبدأ المساواة؛ ومن ثم يجب أن تُعالج هذه المشكلة معالجة جدية؛ وذلك بمحاربة اللهجات المحلية ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين».

وقياسا على ذلك نقول: إن ثمة فصحى عصرية ميسور استعمالها كتابة وشفاهة، هي لغة الصحافة والنشرات الإذاعية والتقارير والخطاب السياسي الرسمي والخطاب الديني المعاصر، ويساعد على نشرها وسائل الإعلام المتعددة، وربما هذا ما جعل بعض المفكرين يصفون «العربية» في القرن الماضي بأنها لم تعش عصرا مزدهرا كما تعيشه في تلك المرحلة من

التاريخ١٦؛ بسبب الانتشار الواسع غير المعهود من خلال التدفق عبر وسائل الإعلام المقروءة والمنطوقة والمؤسسات التعليمية المختلفة وإنشاء مدارس وجامعات عربية في بلدان غير عربية.

وعلى الرغم من أن العامية لغة الحياة اليومية في العالم العربي، فإن الفصحى تبقى أثرى لفظا وأكثر تركيبا وأغنى دلالة وأوسع نشرًا؛ ومن ثم فهي الصالحة أن تكون لغة النفاذ إلى مصادر المعلومات، وهي الصالحة أن تكون لغة الفكر والإبداع والحوار، وانتشارُها ضرورةٌ لإيجاد مجتمع مثقف قادر على تحقيق التنمية البشرية.

وقد نتج عن ذلك أن تعالت أصوات تنادي بأن العربية لم تعد صالحة لمسايرة تطورات العصر، ولا تصلح لغة للعلوم التجريبية كالطب والهندسة والفيزياء، بل هي سبب تخلفنا!!

بل تعالت أصوات منادية بأن تكون العامية لغة للأدب حتى أضحت المزاوجة بين الفصحى والعامية ظاهرة ملموسة في الإبداع الأدبي، وقد اصطلح عليها النقاد بمصطلحات (العدول) و(الانزياح) و(الانحراف الأسلوبي)١٧، وقد أدرجوا تحتها مخالفة القواعد النحوية، كتذكير ما حقه التأنيث وإفراد ما حقه الجمع وإجراء غير العاقل مجرى العاقل، وغير ذلك، وقد انقسم النقاد تجاه موقفهم من الكُتّاب الذين جعلوا العامية لغة إبداعاتهم إلى مؤيد ومعارض، ولكل حجته، فالمؤيدون يحتجون بأن الأدب تعبير عن الواقع الاجتماعي، والعامية هي لغة ذلك الواقع، والمعارضون للعامية يرون أن الأدب يجب أن يكون راقيا في لغته، وبه يرقى المجتمع، كما أن الفصحى تسهم في المحافظة على هوية الأمة.

وقد انسحب الخلاف إلى لغة أدب الأطفال، فبينما يرى بعض الباحثين أن سائر الأمم تعنى بتعليم لغاتها القومية منذ الطفولة، واللغة استجابة متعلّمة، ويجب أن تكون الفصحى لغة الإبداع الأدبي؛ حتى يتعود الطفل عليها لغة وكتابة وفهمًا، يرى آخرون أن البدء بتعليم الفصحى يشكل صعوبة بالغة أمام الطفل، في حين يسهل عليه أن يخاطَب بالعامية التي يألفها في المنزل والشارع ووسائل الإعلام١٨.

وأرى الحق مع أنصار الفصحى؛ إذ ينبغي أن نحافظ على لغتنا الجميلة؛ لأنها لغة ذات قيمة دينية، فهي لغة القرآن الكريم والحديث النبوي، والمحافظة عليها انتماء ديني وطني، والتنفير منها هدف عدائي؛ فلا يجوز تشجيع العامية والانتصار لها، والحُجة بأن العامية لغة الواقع الذي يعيشه القارئ، وأن الفصحى بمعزل عنه حجةٌ واهية، فنّدها د.شوقي ضيف في قوله: «إن التشبث بفكرة الواقع في الأعمال الإبداعية إلى حد أن تفسد لغتَها بإدخال الكلمات العامية، تشبث يُفقدها روعتها الأدبية، وينبغي أن نحتفظ لها بقيم هذه الروعة، والواقعية الحقيقية تكون في المضمون والقضايا والأوضاع الاجتماعية التي ينبغي أن يحسن أداءها القصاص»١٩.

ونحن نؤكد هنا أن العاميات العربية ليست لغات مستقلة عن الفصحى، وإنما هي لهجات جغرافية اجتماعية، أصابها تغيير في بعض ألفاظها من حيث البنية والتركيب والدلالة، وهي تمثل مستوى من مستويات العربية المتنوعة، وعلى الرغم من أنها لغة الحياة اليومية في العالم العربي، فإن الفصحى تبقى أثرى لفظا وأكثر تركيبا وأغنى دلالة وأوسع نشرًا؛ ومن ثم فهي الصالحة أن تكون لغة النفاذ إلى مصادر المعلومات، وانتشارُها ضرورة لإيجاد مجتمع مثقف قادر على تحقيق التنمية البشرية، وهي الصالحة أن تكون لغة التفكير والإبداع الأدبي، ومن مصلحة المبدع أن يسطر إنتاجه بالفصحى؛ حتى ينتشر العمل في جميع الأقطار العربية؛ لأن استعمال العامية يَحدُّ من آفاق انتشار الرسالة أو الفكرة التي يبعثها صاحب القلم؛ لأن ثمة ألفاظا وتراكيب ذات خصوصية اجتماعية، تختلف من بلد لآخر، قد تستوقف القارئ عاجزا عن فهم دلالاتها!.

ومن يطالع الأعمال القصصية الموجهة للأطفال يجد أن السمة الغالبة على لغتها أنها مكتوبة بفصحى ميسرة مفهومة من الطفل إلى حد أن هذا الأدب ينعت بأنه أدب فصيح، وأذكر هنا ـ على سبيل المثال ـ قصص «الضفدع» للكاتبة عزة أحمد أنور، و«السجادة المفقودة» للأديب شاكر صبري، و«كتاب الصلاة» للأديب أحمد محفوظ، و«قصة السُكّر» د.عز الدين فراج، و«ما عند الله» للكاتبة فاطمة عبدالعزيز، و«الأجنحة البيضاء» للكاتب أحمد مختار، و«رجل من البادية» للكاتب

شريف الراس، و«كفاح طيبة» للكاتب محمد المعلم، و«عصفور وجرادة» للأديب يعقوب الشاروني، فضلا عن المجموعات القصصية التي تكون لكاتب واحد أو لدار نشر واحدة، وقد اطلعت منها على مجموعات «أساطير الشرق»٢٠ و«قصص الأنبياء»٢١ و«هذه بلادي»٢٢ و«بطولة ملك»٢٣ و«فرسان الإسلام»٢٤، و«المكتبة الحديثة للأطفال»٢٥، وسلسلة «روايات مصرية للجيب»٢٦، ولم يقتصر أمر الفصحى على الأعمال الإبداعية، بل شملت الأعمال المترجمة، كـ«سلسلة الأدب العالمي للأطفال»٢٧، وغيرها كثير، فضلا عن إبداعات جيل الرواد، فقد أُنتِجتْ بفصحى سهلة الفهم مناسبة للطفل، ولعل من المناسب في هذا السياق هنا أن نسوق شطرا من إبداع قصصي مسطور بالفصحى، جزءا من قصة «ماجد والكتاب السحري» للأديب شاكر صبري.

وأنا أعتقد أن للغزو الثقافي الغربي يدًا في ذلك، يقول (ويلكوكس) أحد المسئولين الإنجليز في مصر وقت الاحتلال: «إن العامل الأكبر في فقد الاختراع لدى المصريين هو استخدامهم اللغةَ الفصحى في القراءة والكتابة»، ومن يراجع الوثائق التي بدأت بها عملية الاحتلال البريطاني لمصر يكتشف أن أول أعمال الاحتلال هو وضع الخطة لتحطيم اللغة، يبدو ذلك واضحاً في تقرير لورد دوفرين عام ١٨٨٢ حين قال: «إن أمل التقدم ضعيف في مصر ما دامت العامة تتعلم اللغة العربية الفصيحة»، وقد توالت هذه الحرب ليس في مصر وحدها بل في الشام والمغرب بأقطاره كلها في محاولات قدمها كرومر وبلنت من ناحية ولويس ماسينيون وكولان في المغرب، ثم تقدم رجال يحملون أسماء عربية للعمل بعد أن مهد لهم الطريق ويلكوكس والقاضي ديلمور، وحيل بين اللغة العربية وبين أحكام المحاكم المختلطة والأجنبية، وكان التعليم في البلاد العربية المحتلة يتم كله باللغات الأجنبية (الإنجليزية في مصر والسودان والعراق) والفرنسية في (سورية وتونس والجزائر والمغرب)، فقد كانت لحظة النفوذ الأجنبي ترمي إلى:

أولاً : تحويل أبجدية اللغات الإقليمية إلى اللاتينية وكانت تكتب أساساً بالحروف العربية ، كما حدث في إندونيسيا وبعض بلاد إفريقية وآسية .

ثانياً : تقديم اللغات الأجنبية في الأقطار الإسلامية على اللغة العربية .

ثالثاً : تقديم اللهجات واللغات المحلية وتشجيعها والدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية.

رابعاً : ابتعاث الطلاب إلى الغرب لدراسة لغاته، وكان ذلك إيماناً بأن اللغة هي الوجه الثاني للفكر، وأن من يجيد لغة ما يُعجَب بفكر أهلها، ويصير له انتماء من نوع ما إلى هذه الأمة، وكانت الحملة على الفصحى من خلال حجج ضعيفة واهية منها: صعوبة اللغة، والتفاوت بينها وبين العامية.٢٨.

وبلا تهكم نقول: ما لهؤلاء القوم لا يفقهون! فلينظروا إلى مجتمع تجمع بعد تفرق، فأحيا لغة بعد موتها، وجعلها لغة للعلوم والتخاطب معا! كيف تكون العبرية لغة لعلوم العصر، والعربية غير قادرة على ذلك؟!! وثمة نظرية ترى أن العبرية هي إحدى اللهجات العربية القديمة، أفتستمدّ الأمة قوتها من اللغة؟ أم تستمد اللغة قوتها من الأمة؟!

أما العولمة الثقافية فهي تهدف إلى سيطرة النظام الأمريكي في العالم جميعا وسيادته على جميع الثقافات تحت شعار (التثاقف مع الآخر)، بل تسعى إلى دمج سكان العالم في مجتمع عالمي واحد بعد إلغاء خصوصيات الثقافات الأخرى، وهذا يعني إلغاء الهوية الثقافية التي تميّز مجتمعا عن مجتمع آخر، ومن تلك الخصوصيات خصوصية اللغة، فالتثاقف هنا يعني عولمة اللغة الإنجليزية وضياعَ اللغات الأخرى، وليس بخفيٍّ على أحد أن الغزو اللغوي لا يقلّ خطورة عن الغزو العسكري؛ فضياع اللغة يعني طمسَ الهُويّة الخاصة بالأمة وثقافتها وحضارتها وموروثاتها؛ لأن اللغة وعاءُ ذلك كلِه؛ ومن ثم ندرك السر في قول فقهائنا الأصوليين بأن تعلّم العربية واجب شرعي!!

وقد تحققت عولمة اللغة الإنجليزية في كثير من المظاهر الثقافية والمدنية الحديثة، فهي تمثل أكثر من ٨٠٪ من لغة الإنترنت والاتصال الهاتفي والإنتاج السينمائي والبرامج الإذاعية، كما أنها لغة العلوم التجريبية وأسماء الأسواق والمحالّ التجارية واللوحات الإرشادية في كثير من البلاد، ومنها ـ للأسف ـ

البلاد العربية! إضافة إلى أنها صارت لغة رسمية لكثير من الدول.

وهنا يأتي دور الثقافات الوطنية أو الإقليمية؛ لتثبت وجودها وتميّزها أو ذوبانها في الآخر حسب قوتها أو ضعفها، ومن ثم نسأل: أين نحن؟ وما مدى قوتنا الثقافية؟

ومع أن العربية هي اللغة الوحيدة التي تُنسب لأمة لا دولة فقد انضمت إلى قائمة لغات مجلس الأمن بعد هياط ومياط وشفاعة من قريش!! تسبقها عدة لغات؛ وهذا ما يؤكد وجهة النظر القائلة بأن هويتنا الثقافية مهزوزة، يشوبها تفكك واضطراب وتناقض، فاللغة المنطوقة مختلفة من قطر لآخر بعيدا عن الفصحى الموحِدة، والثقافة ليس لها خصوصية عربية، وإنما هي ثقافات متباينة.

ومن ثمّ تأتي أهمية التعريب للعلوم التجريبية، ويمكن أن نستثني من ذلك مصطلحات المخترعات والمبتكرات الحديثة، فإبقاؤها بأسمائها الأجنبية أولى، ولا ضير في ذلك، وهذا لا يعني رفضنا للغات الأجنبية؛ فهي النافذة لنا على ثقافة الآخر وعلومه المتقدمة، وجهلنا بها يحرمنا الإفادة من ذلك، لكنّ المرفوض هو الذوبان في الآخر، فتضيع خصائصنا الثقافية وهويتنا الإسلامية.

ونتيجة لذلك ظهرت (المثاقفة المضادة)٢٩؛ فتعالت أصوات عربية أصيلة تعلن عن ظهور مصطلح عربي جديد في مقابل العولمة، وهو (العوربة)، ويعنون به تعميم نمط عربي ثقافيا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا ولغويا في جميع الأقطار العربية٣٠، وقد استخدم كُتّاب ومفكرون عرب هذا المصطلح، لكن لم يكتب له الذيوع والانتشار!!

وأعتقد أن ذيوع هذا المصطلح وتفعيل مضمونه يقتضي عدة متطلبات، يأتي في مقدمتها رغبة سياسية٣١ تلزم جميع الجهات المعنية بالتنفيذ؛ لأن مستقبل اللغة قضية قومية سيادية، ويمكن أن يلعب القرار السياسي دورا مهما في تحقيق بقية المتطلبات، ومنها المزيد من الاهتمام بتعلّم القرآن الكريم في المؤسسات التعليمية المختلفة، ووضع برامج متخصصة لتعليم الفصحى بطريقة ميّسرة، وتشجيع المجتمع ولاسيما النشء على تعلم اللغة العربية بشكل يجعل الفرد حريصا على تعلّم اللغة، وتنمية الوعي اللغوي لدى الطفل٣٢، وإلزام الأستاذ الفصحى في قاعة الدرس، ومما يسهم بشكل فعال في النهوض بلغتنا الجميلة الإعلام ولاسيما المقروء، فهو ذو تأثير إيجابي كبير في اللغة، ومن الآثار الإيجابية٣٣:

- الوصول إلى أفكار الموضوع وصولا مباشرا دون التوقف عند نتوءات فكرية فرعية، ويظهر ذلك بصفة خاصة في نشرات الأخبار والتعليق عليها.
- السهولة والوضوح، فلم تعد وسائل الإعلام تستخدم الغريب أو المهجور من ألفاظ اللغة، وتصدق هذه الخصيصة على البرامج التراثية كالتفسير والتوعية الدينية وتقديم الكتب القديمة وتحليلها، التخفف من الأثقال اللغوية والخيالية، إلى حد التخلص التام أحيانا من الصور البيانية، فأحلت التعبيرات المباشرة السهلة محل العبارات البيانية.
- أمدت وسائل الإعلام، اللغة العربية بكثير من الألفاظ والعبارات والتراكيب الجديدة المولدة ، وكثير منها مترجم عن اللسان الأجنبي. على أن وسائل الإعلام لم تكن دائما خيرا وبركة على لغتنا الجميلة، فهي إذا كانت قد قدمت نفعا ما فإنها تسببت في الوقت نفسه في تأثيرات ضارة كانت أفدح وأعتى، منها:
- التليفزيون يصرف الأطفال والناشئة عن القراءة وعن أوجه نشاط أخرى مفيدة.
- والإعلانات كانت انتصارا للعاميات وترويجا للغات الأجنبية ونشرا للنطق المعيب لكلمات العربية وإفسادا للذوق الفني والحس اللغوي. وقد حققت الإعلانات ذلك في سرعة عجيبة لأنها تعرض بأسلوب فني فتان، موظفة - بإمكاناتها الضخمة - أحدث الوسائل التي تحقق جمال العرض وبراعته، فأصبح الأطفال بخاصة متعلقين بها إلى أقصى مدى.
- وفي الإعلانات الصحفية أصبحت الأخطاء اللغوية والقاعدية هي الأصل، أما سلامة اللغة فهي الاستثناء، زيادة على أن كثيرا منها يكون مطعما بالقوالب والكلمات الأجنبية بحروف لاتينية أو حروف عربية.

ومجمل القول أن تحقيق هذه المتطلبات يدخل في إطار إجابات هذه

التساؤلات: ما واجبنا نحو العربية لمواجهة العاميات المتباينة؟ وماذا علينا تجاه العربية لمواجهة ثقافة العولمة؟ وهل ثمة عوائق في أن تكون العربية لغة للعلوم التجريبية؟ وهل يمكن أن تعود العالمية للغتنا الجميلة؟

وعلى الرغم من حالة الضعف بمختلف أشكاله التي يعيشها العالم العربي، والتي أثرت سلبا على انتشار العربية وسيادتها فإن المتحدثين بها اليوم أكثر من مائتي مليون، ففضلا عن أنها لغة العالم العربي نجدها منتشرة في مناطق كثيرة من بلدان العالم الآخر، مثل: تركيا وإيران وتشاد والسنغال وإريتريا، إضافة إلى استخدام الأبجدية العربية في كثير من اللغات، ولعل هذا يعود إلى قداسة هذه اللغة المستمدة من قداسة القرآن، فهو لا يتلى إلا بالعربية، ولا تؤدى الشعائر إلا بها، فهي لغة أولى أو ثانية لكل مسلم على وجه الأرض؛ ومن ثم نجد الآن حرصا شديدا من بعض المسئولين في القارة السوداء على نشر اللغة العربية واستخدام الأبجدية العربية في الكتابة بلغاتهم الأصلية، إضافة إلى ذلك فإن ساسة الغرب ومثقفيهم الغرب يدركون قيمة العربية وأهميتها في النهوض بالأمة، فقد نشرت جريدة «الصباح» التونسيّة الخبر التالي: «في باريس ذهب جاك شيراك (الرئيس الفرنسي السابق) بنفسه وافتتح مهرجان الثقافة العربيّة واللغة العربيّة، وأكّد مرّة أخرى على ضرورة التواصل مع هذه اللغة العبقريّة بوصفها أداة حضارة وبوصفها أيضاً لغة قوّة بشريّة وحضاريّة لا يستهان بها، فالعرب وإن انتُهكوا وانهزموا، فهم ما زالوا يشكّلون أمّة واحدة، تحمل بذور فكر جديد، وحضارة جديدة، وقد يستولون على المستقبل مثلما فعلوا في الماضي البعيد»٣٤.

ومما يفتح لنا أبواب الأمل في النهوض بلغتنا الجميلة اهتمام بعض المسئولين في العالم العربي بها والعمل على نشرها، ولعل أبرز مظاهر ذلك إنشاء مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية بالسعودية ١٤٣١هـ ، فهو يهدف إلى إيجاد البيئة الملائمة لترسيخ اللغة وتطويرها ونشرها، ووضع المصطلحات العلمية واللغوية والأدبية والعمل على نشرها، ويأتي في هذا السياق مؤتمرنا الدولي الذي نحتفي به الآن في رحاب الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

الخلاصة

تناول البحث «لغتنا الجميلة» عبر مرحلتين تمثلان صورتين متغايرتين: الأولى يمثلها ماضيها المشرق، والأخرى يمثلها حاضرها المغرب، من خلال التثاقف مع اللغات الأخرى، وهو إحداث تأثير وتأثر بين لغة وأخرى، كأن تدخل كلمات من كل لغة في قاموس اللغة الأخرى، أو تقتحم لغةٌ لغةً أخرى، فتُستَعمل على ألسنة أهلها وكأنها لغتهم الأصلية.

وقد برزت الصورة الأولى بعد وفاة النبي (بوقت قصير، إذ وجد العرب أنفسهم قوّامين على أمم ذات حضارات عريقة وثقافات عميقة لم يعرفوها؛ حيث كانت الثقافة الساسانية في العراق وفارس والثقافة الرومية واليونانية في الشام ومصر، فضلا عما كان سائدا من تثاقف بين الثقافة الهندية والثقافة الفارسية من ناحية، والثقافة الرومية والثقافة المصرية من ناحية ثانية، والثقافة العراقية والثقافة السُريانية في الشام من ناحية ثالثة، والثقافة العبرية والثقافة العراقية من ناحية رابعة.

وكان على العرب أن يختاروا أحد أمرين: إما أن يكونوا أصحاب رسالة لا تستند إلى ثقافة تتثاقف مع تلك الثقافات، وهو أمر يوهن العرب وينعت الإسلام بالتناقض، وإما أن يسلكوا طريقا يليق بأمة صاحبة رسالة سامية، فيسعوا جاهدين إلى إنشاء ثقافة قومية تسهم في قبول تلك الرسالة لدى المغلوبين المثقفين، وقد اختار العرب الطريق الثاني، فأقاموا ثقافة إسلامية واسعة؛ من خلال بيان معاني القرآن للأمم الأخرى؛ فاستحدثوا علوما تسهم في بيان المقصود القرآني من تفسير وحديث وإعجاز وفقه وأصول ونحو وبلاغة ولغة وغير ذلك مما يسمى علوم القرآن، وقد دونت تلك العلوم بلغتنا الجميلة، ثم أضحت للعرب ثقافة ضخمة في مختلف العلوم الإنسانية.

لكنّ هذه الثقافة أقلقت البعض، فأخذوا يلوون «عنق النص» من أجل إثبات أن هذه الثقافة مردها الثقافة اليونانية، مستثمرين في ذلك ازدهار حركة الترجمة في عصر المأمون،

فتعالت أصواتهم بأن للمنطق اليوناني أثرا كبيرا في العلوم الإسلامية، وهو زعم رفضه الفكر العربي الأصيل.

غير أن هذا لم يمنع أن تثاقفا ما حدث بين الثقافة الإسلامية والثقافات الموجودة في مصر والشام وفارس وبلاد الروم، بفضل الفتح الإسلامي والتبادل التجاري والجوار الجغرافي، وكان ذلك التثاقف لصالح الثقافة الإسلامية بمختلف مظاهرها، ومنها التثاقف اللغوي؛ حيث أسهم المسلمون الأعاجم ولاسيما علماء العربية في نشر هذه اللغة بعد أن فقهوها، حتى صارت لغة رسمية في بعض البلاد كمصر والشام والعراق بعد محْو لغاتها الأصلية، كما تركت أثرا كبيرا في لغات أخرى كالفارسية والأسبانية، بل وصارت العربيةُ اللغةَ العالمية الأولى حينما كان للعرب حضارة ذات آفاق.

ثم تراجعت الثقافة الإسلامية في عصور الركود الفكري والضعف السياسي الذي بدأ بسقوط الدولة العباسية في الشرق والدولة الإسلامية في الغرب، ثم ما لبثت أن استردت مكانتها في ظل الخلافة العثمانية للعالم الإسلامي، حيث استطاعت الدولة العثمانية أن تسود معظم بلدان العالم، فوصلت إلى أوربا الشرقية ومناطقَ كبيرة من أسيا وأفريقيا، وترتب على ذلك أن حدث تثاقف بين الثقافة الإسلامية والثقافات الموجودة آنذاك، وبفضل قوة الخلافة العثمانية كانت السيادة لصالح الثقافة الإسلامية، حيث سادت في تلك البلاد بعد أن أبادت الثقافات المتعارضة، وكان من مظاهر سيادتها انتشار لغتنا الجميلة في تلك المناطق من العالم، فانتشرت في شعوب كثيرة مثل ألبانيا والبوسنة وكوسوفا وشعوب أفريقيا السوداء، فضلا عن اعتماد دول ومناطق كثيرة الأبجدية العربية في كتابة لغاتها كالتركية والأردية والأفغانية والسواحلية، وقد تجاوز عدد اللغات الأعجمية التي اعتمدت الأبجدية العربية منذ فجر الإسلام حتى ذلك الوقت أكثر من سبعين لغة، ولا يزال بعضها إلى الآن يكتب بالحرف العربي كاللغة الفارسية.

أما الحاضر المغرب للغتنا الجميلة فهو يبدأ بانتهاء السيادة الفعلية للخلافة العثمانية واحتلال الغرب الأوربي للعالم الإسلامي، والتثاقف فيه افتقر إلى أمرين: الأول: وجود قراءة واعية للتراث؛ إذ ليس المهم مجرد وجودِ تراثنا بين أيدينا، ونحن لا نُغفل أن معرفتنا الأولية بتراثنا تحقيقا ونشرا تمت على أيدي المستشرقين، بصرف النظر عن مدى جودة تحقيقهم وأهدافهم من وراء ذلك، والأمر الآخر: أن هذا التثاقف لم يكن اختيارا حرا لنا، وإنما تم تحت سلطة الاحتلال، ولم يكن ممثل الثقافة الأخرى موضوعا فكريا مطروحا للفهم، وإنما كان موجودا عسكريا مطروحا للمقاومة.

وهذه الازدواجية جعلت تثاقفنا مع الآخر مجرد غزو ثقافي وتبعيةٍ فكرية له، ثم برز على الساحة ما يعرفُ بثقافة القطب الواحد، وارتفعت أسهمها على حساب الثقافات الأخرى، ومنها الثقافة العربية التي اصطدمت بها في بعض خصوصياتها؛ ومن ثم تعالت أصوات عربية تنادي بضرورة حوار الحضارات ردا على ما أسماه الآخر صراعَ الحضارات أو صدام الحضارات.

ولم يكن التثاقف اللغوي لصالحنا، بل أسهم في أن يعزل العربية عن مواكبة الركب الحضاري، وفُرض على لغتنا الجميلة نوعان من التثاقف: تثاقف داخلي مع العاميات العربية، وتثاقف خارجي مع العولمة الثقافية، وكلتاهما بمثابة غزو ثقافي لها.

فهذه اللغة الحضارية أضحت مهمّشة من الخطاب اليومي في الشارع العربي؛ حيث حلت محلها لهجات عامية متباينة في بعض الخصائص اللغوية؛ بسبب ضعف سياسي وحضاري وثقافي استشرى في المجتمعات العربية، وقد نتج عن ذلك أن تعالت أصوات تنادي بأن العربية لا تصلح لغةً للعلوم التجريبية، فضلا عن عدم صلاحها لمسايرة التقدم العصري.

بل تعالت أصوات بأن تكون العامية لغة للأدب حتى أضحت المزاوجة بين الفصحى والعامية ظاهرة ملموسة في الإبداع الأدبي، وقد اصطلح عليها النقاد بمصطلحات (العدول) و(الانزياح) و(الانحراف الأسلوبي)، وقد أدرجوا تحتها مخالفة القواعد النحوية، كتذكير ما حقه التأنيث وإفراد ما حقه الجمع وإجراء غير العاقل مجرى العاقل، وغير ذلك، وقد انقسم النقاد تجاه موقفهم من الكُتّاب الذين جعلوا العامية لغة إبداعاتهم إلى مؤيد ومعارض، ولكل حجته، فالمؤيدون يحتجون بأن الأدب تعبير عن الواقع الاجتماعي، والعامية هي لغة ذلك

الواقع، والمعارضون للعامية يرون أن الأدب يجب أن يكون راقيا في لغته، وبه يرقى المجتمع، كما أن الفصحى تسهم في المحافظة على هوية الأمة.

وقد انسحب الخلاف إلى لغة أدب الأطفال، فبينما يرى بعض الباحثين أن سائر الأمم تعنى بتعليم لغاتها القومية منذ الطفولة، واللغة استجابة متعلّمة، ويجب أن تكون الفصحى لغة الإبداع الأدبي؛ حتى يتعود الطفل عليها لغة وكتابة وفهمًا، يرى آخرون أن البدء بتعليم الفصحى يشكل صعوبة بالغة أمام الطفل، في حين يسهل عليه أن يخاطَب بالعامية التي يألفها في المنزل والشارع ووسائل الإعلام.

وأرى الحق مع أنصار الفصحى؛ إذ ينبغي أن نحافظ على لغتنا الجميلة؛ لأنها لغة ذات قيمة دينية، فهي لغة القرآن الكريم والحديث النبوي، والمحافظة عليها انتماء ديني وطني، والتنفير منها هدف عدائي؛ فلا يجوز تشجيع العامية والانتصار لها، والحُجة بأن العامية لغة الواقع الذي يعيشه القارئ، وأن الفصحى بمعزل عنه حجةٌ واهية.

ونحن نؤكد هنا أن العاميات العربية ليست لغات مستقلة عن الفصحى، وإنما هي لهجات جغرافية اجتماعية، أصابها تغيير في بعض ألفاظها من حيث البنية والتركيب والدلالة، وهي تمثل مستوى من مستويات العربية المتنوعة، وعلى الرغم من أنها لغة الحياة اليومية في العالم العربي، فإن الفصحى تبقى أثرى لفظا وأكثر تركيبا وأغنى دلالة وأوسع نشرًا؛ ومن ثم فهي الصالحة أن تكون لغة النفاذ إلى مصادر المعلومات، وانتشارُها ضرورة لإيجاد مجتمع مثقف قادر على تحقيق التنمية البشرية، وهي الصالحة أن تكون لغة التفكير والإبداع الأدبي، ومن مصلحة المبدع أن يسطر إنتاجه بالفصحى؛ حتى ينتشر العمل في جميع الأقطار العربية؛ لأن استعمال العامية يَحدُّ من آفاق انتشار الرسالة أو الفكرة التي يبعثها صاحب القلم؛ لأن ثمة ألفاظا وتراكيب ذات خصوصية اجتماعية، تختلف من بلد لآخر، قد تستوقف القارئ عاجزا عن فهم دلالاتها!

وفي اعتقادي أن للغزو الثقافي الغربي يداً في ذلك، يقول (ويلكوكس) أحد المسئولين الإنجليز في مصر وقت الاحتلال: «إن العامل الأكبر في فقْد الاختراع لدى المصريين هو استخدامهم اللغةَ الفصحى في القراءة والكتابة»[1]!

أما العولمة الثقافية فهي تهدف إلى سيادة الثقافة الأمريكية على جميع الثقافات تحت شعار المثاقفة مع الآخر، بل تسعى إلى دمج سكان العالم في مجتمع عالمي واحد بعد إلغاء الخصوصيات الثقافية لكل مجتمع، ومنها خصوصية اللغة، فالمثاقفة هنا تعني عولمةَ اللغة الإنجليزية وضياعَ اللغات الأخرى، وليس بخفيّ أن الغزو اللغوي لا يقلّ خطورة عن الغزو العسكري؛ فضياع اللغة يعني طمسَ هُويّة الأمة وثقافتها وحضارتها؛ لأن اللغة وعاءُ ذلك كله.

ومع أن العربية لغةٌ تُنسب لأمة لا دولة فقد انضمت إلى قائمة لغات مجلس الأمن والأمم المتحدة - بعد شفاعة من قريش - تسبقها عدة لغات؛ وهذا مؤشر على اهتزاز هُويتنا الثقافية، حيث يشوبها تفكك واضطراب.

ومن ثمّ تأتي أهمية التعريب، باستثناء مصطلحات المخترعات والمبتكرات الأجنبية، ولا يعني هذا رفضَنا للغات الأجنبية؛ فهي النافذة لنا على ثقافة الآخر وعلومه المتقدمة، لكنّ المرفوض هو الذوبان فيه، فتضيعُ خصائصنا الثقافية.

ونتيجة لذلك ظهرت المثاقفة المضادة؛ فارتفعت قليلا أصوات عربية أصيلة تنادي بمصطلح عربي جديد في مقابل العولمة، هو (العوربة)، ويعنون به تعميم نمط عربي ثقافيا وسياسيا واجتماعيا ولغويا في جميع الأقطار العربية، لكن لم يُكتَب له الذيوع! ولعل ذيوعَه وتفعيلَ مضمونه يقتضي عدة متطلبات، أهمُّها رغبة سياسية تلزم الجهاتِ المعنيةَ بالتنفيذ؛ لأن مستقبل اللغة قضية سيادية.

الهوامش

١ انظر: ابن منظور : لسان العرب مادتي (ش ر ق) و(غ ر ب)

٢ جدير بالذكر أن كلمة «تثاقف» لم ترد في القاموس العربي، لكن القياس لم يمنعها، وهو مصطلح أمريكي يعني التقارب بين الثقافات، فهو يقتضي وجود ثقافتين يحدث بينهما تأثير وتأثر، كما حدث في المجتمع

السعودي من التأثر بثقافات أخرى مع الاحتفاظ بثقافته الأصلية، ومثال لذلك قبول بعض أفراده مظاهر التقنية الحديثة كالصور الفوتوغرافية والفيديو والقنوات الفضائية والانترنت، وقد يستمر التثاقف فترة طويلة نتيجة تمسك المجتمع بثقافته الأصلية مع قبوله الثقافة الأخرى، وهذا ما يسمى بالتماذج الثقافي، وقد تحدث هيمنة من الثقافة الجديدة؛ فينقطع التثاقف؛ ليحل محله النزع الثقافي أو التغيير الثقافي، ولعل ما أحدثه الإسلام من محو بعض العادات الجاهلية وتثقيف المجتمع بقيم أخرى تمثل ثقافة جديدة يدخل في هذا الجانب من التثاقف؛ حيث جاء الإسلام بثقافة تشريعية اصطدمت مع بعض العادات وأيدت بعضها الآخر، ورويدا رويدا تقبّل المجتمع العربي الثقافة الجديدة برغبته، فحدثت هيمنة ثقافية حولت التثاقف إلى تغيّر ثقافي.

٣ للمزيد انظر: البيان والتبيين ط أولى ١٩٦٨ باب من الخطب القصار من خطب السلف .. عودة إلى المفاضلة بين الصمت والكلام. وجَسَأَ الشيءُ يَجْسَأُ جُسُوءاً وجُسأةً، فهو جاسئٌ: صلُبَ وخَشُنَ. انظر: لسان العرب مادة (جسأ)

٤ انظر: د.سالم المعوش: دور اللغة العربية في بناء المجتمع العربي وتطوره. بحث منشور إلكترونيا ٢٠١١

٥ انظر: د.رافد حداد : تعريب في المهجر مقال منشور بموقع http://www.iraqnla.org/fp/journal٤٦/٨.htm

٦ انظر: د.فرحان السليم: اللغة العربية ومكانتها بين اللغات. بحث منشور إلكترونيا.

٧ انظر: د.طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ١٤٥

٨ انظر: د.سالم المعوش: المرجع السابق، نقلا عن هدسون في كتابه «علم اللغة الاجتماعي».

٩ انظر: سالم المعوش: المرجع السابق.

١٠ انظر: تمام حسان : الأصول دراسة إبستمولوجية ص ٢٥ ط.عالم الكتب ٢٠٠٠

١١ لم يتوقف الأمر عند القدماء أمثال يونس بن متى، بل استمر إلى وقتنا الحاضر، فحاول كثير من المستشرقين التشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية، وجعلها عالة على» المعجزة اليونانية»، وقلّما يخلو كتاب يؤرِّخ للفكر الإسلامي العربي من الإشارة إلى حضور الثقافة اليونانية فيه، وذهبتْ فئة من الباحثين تمثَّلتْ روح الاستشراق، إلى أن التجديد في الأدب العربي؛ كان بتأثير من الثقافة اليونانية التي اخترقت الثقافة الإسلامية العربية، بل ذكر د.طه حسين أن التطور في العصور العباسية نشأ عن الاتصال بالثقافتين الفارسية واليونانية، وأن الفيلسوف اليوناني أرسطو لم يكن المعلم الأول للمسلمين في الفلسفة فحسب وإنما كان كذلك في علم البيان. انظر: عباس أرحيلة: أبوتمام ومسألة التأثير اليوناني (بحث منشور إلكترونيا)، وانظر: عبدالجبار الشرايفي: الأثر اليوناني في البلاغة العربية: بلاغة النص وبلاغة الخطاب (بحث منشور إلكترونيا على الانترنت).

١٢ انظر: موقع الحرف العربي على خريطة اللغات العالمية، ودرجات انتشاره وانحساره في القرن العشرين وتأثيره في تعليم طلاب معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. بحث منشور بمجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.١٤٣٠

١٣ يقول سالم المعوش: «إذا كان ثمّة من تأثير يبدو للغة العربية فيما يحيط بها وفيمن تعامل معها، من فرس وهنود وأتراك، فإنّ تأثيراً كبيراً يُحفظ لها في القارة الإفريقية لا يزال قائماً إلى يومنا هذا، وهو ينمو باطراد، يبدأ من شمالي القارة فيحوّل حياة أبنائها كليّاً، ثم يعود ليتجه جنوباً مروراً بالقلب وانتهاء إلى شرقها وغربها.. فهي لغة الشعائر الدينية في أفريقيا، وهي تحتل ٣٠٪ من لغة «الهوسا» و٩٠٪ من لغة تشاد، وتتحدث بالسواحلية عشر دول منها في شرقها، وهي موجودة في جميع أنحاء أفريقيا بدون استثناء، والعربية لغة أفريقية بكل معنى الكلمة». انظر: سالم المعوش: مرجع سابق.

١٤ يذكر أن أول طباعة لكتاب سيبويه في العصر الحديث كانت في ألمانيا بصرف النظر عن قيمتها وجودتها،

وقد اختلفت أهداف المستشرقين من البحث العلمي في التراث العربي الإسلامي، فبينما التزم بعضهم الحيادية العلمية ودقة أمانة البحث العلمي انحاز آخرون لتوجه ما، ويجدر بنا هنا أن نذكر وجهتي نظر اثنين من المستشرقين تجاه القراءات القرآنية، هما الألماني جولد زيهر والفرنسي موريس بوكاي، فبينما يقول عنها جولد زيهر: «وترجع نشأة جزء كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة تبعا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته وعدد تلك النقاط وكذلك اختلاف الحركات، فكانا السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات»، يقول موريس بوكاى: «لقد تمت عملية تحقيق النص بمنتهى الدقة؛ وذلك لضمان انتشار النص في نقائه الأصلي»، ثم يؤكد: «أن الخط والسياق يحتمل أكثر من قراءة في آيات كثيرة، ومع ذلك لم يقرأ بذلك القراء»١٤. انظر: جولد زيهر: مذاهب التفسير، و موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة ١٥٦ .

١٥ انظر: الإحكام في أصول الأحكام ج١ / ٣٢ طبعة محققة على نسخة أحمد شاكر، دار الآفاق بيروت. ويتساءل د.سالم المعوش: «هل هي حال الأمّة العربية اليوم؟ وماذا بعد ذلك إن لم تبادر إلى إصلاح حالها، واكتشافها، فلا حياة لها إلاّ بتوحدها الذاتي وتقوية شخصيتها واعتمادها على إمكاناتها أولاً ، والتعامل مع الآخرين باحترام متبادل ثانياً، وفي المقدّمة الاهتمام بجامعها اللغوي؟!

١٦ راجع : د.أحمد الضبيب : اللغة العربية في عصر العولمة.

١٧ «العدول» يقتضي أن في النص أو الخطاب مستويين من اللغة أو لغتين: لغة مثالية معيارية نمطية متعارف عليها، ولغة إبداعية مخالفة للنمط المعياري السابق، والعدول هو مخالفة النمط المعيار المتعارف عليه إلى أسلوب جديد غير مألوف عن طريق استغلال إمكانات اللغة وطاقاتها الكامنة؛ ومن ثم ينبغي ألا يخرج العدول عن الحد المقبول، بل يكون في حدود ما تسمح به قواعد اللغة، وليس العدول غاية في ذاته إنما المقصود منه إثارة السامع وحفزه على التقبل. انظر: محمد اللويمي: في الأسلوب والأسلوبية ٢٤

١٨ انظر: د.سمير عبدالوهاب: أدب الأطفال ١٤٩ ط.أولى الأردن ٢٠٠٦ ود.فاروق مواسي: اللغة في أدب الطفل (مقال إلكتروني)

١٩ انظر: د.مجدي حسين: خصائص التراكيب في روايات الحكيم ٥١ ط. إسكندرية ٢٠٠٦ وللمزيد انظر: د.جميل حمداوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر ص ٢٦٣ وما بعدها. ط. من إصدارات نادي القصيم الأدبي ٢٠٠٩

٢٠ للكاتب د.محمد التونجي، والناشر دار المعرفة بيروت.

٢١ إعداد قسم النشر بدار الفاروق للاستثمارات الثقافية.

٢٢ للكاتب يزيد القاسم ـ السعودية.

٢٣ تأليف د.عبدالعزيز الثنيان، والناشر مكتبة العبيكان.

٢٤ للكاتب محمد ثابت توفيق، والناشر مكتبة العبيكان.

٢٥ للأديب محمد عطية الأبراشي. ط.دار المعارف المصرية (وقد سلفت الإشارة إليها).

٢٦ هي مجموعات قصصية مقدمة للشباب، ومن كُتّابها د.نبيل فاروق.

٢٧ من هذه السلسلة حكايات للكاتب أفاناسيف، ترجمة د.سهير المصادفة، نشر دار أطلس القاهرة.

٢٨ انظر: د.فرحان السليم: اللغة العربية ومكانتها بين اللغات بحث منشور إلكترونيا على الانترنت.

٢٩ يمكن تعريفها بأنها رفض أو مقاومة التجديد الثقافي، والدعوة إلى الرجوع إلى الأصول، وقد نشأت هذه المثاقفة كردة فعل للمثاقفة الجديدة، فهي ثقافة فرعية تقف في تعارض مع المظاهر الأساسية للثقافة الجديدة التي سادت المجتمع، فهي تعني رفض بعض القيم والمعايير الاجتماعية للثقافة السائدة وتأييد قيم مضادة وتبنى معايير مخالفة، ومثال لها ما يمارسه الإرهابيون من أعمال عنف كالتفجير والقتل وما شابه ذلك تضادا للثقافة القادمة، وهذا يعني أن المتطرفين حينما فهموا أن الإسلام قطيعة مع الآخر مثّلوا

شكلاً من أشكال الثقافة المضادة، ولا يتم التثاقف المضاد إلا إذا كان نزع الثقافة عميقاً إلى حد يمنع من إعادة تشكيل الثقافة الأصلية.

٣٠ د.علاء الحمزاوي: العربية والتحديات المعاصرة مقال منشور بصحيفة جامعة القصيم ٢٠٠٨

٣١ جدير بالذكر أن ثمة خطوات جادة بدأت في هذا الاتجاه الصحيح، مثل خطوات خادم الحرمين الشريفين - حفظه الله - في دعم التعليم والبحث العلمي بأكبر ميزانية في العالم العربي، فهذا يؤكد إدراكه أهمية البحث العلمي وحرصه على أن تكون المملكة في قائمة الدول التي تولي العلم والتعليم اهتماما ورعاية كبيرة، ومن مظاهر ذلك: (التوسع في الجامعات السعودية وإنشاء مركز الملك عبدالله لخدمة اللغة العربية، وبرنامج الملك عبدالله للابتعاث، وجائزة الملك عبدالله العالمية للترجمة). والمستقبل بإذن الله أفضل!! للمزيد راجع للباحث مقالا بعنوان «البحث العلمي والقرار السياسي» بصحيفة جامعة القصيم

٣٢ تعدّ اللغة محورا أساسيا في بناء شخصية الطفل، ولها أثر كبير في تكوين الوعي الثقافي لديه، وتؤكد النظريات العلمية أن اللغة نتيجة من نتائج النمو، وهي مؤدية إلى زيادته، كما تؤكد أن ثمة علاقة بين اللغة والتفكير، فاللغة قدرة ذهنية تنمو مع النمو العقلي، وهي وسيلة من وسائل التفكير، وبينما يسهم التفكير في ازدياد لغة الطفل تسهم اللغة في نمو تفكيره وتنظيمه واتساع مداركه وثقافته، وهنا يأتي دور القراءة الأدبية؛ فهي تثري القاموس اللغوي للطفل؛ ومن ثم ينبغي أن تكون لغة القصة فصيحة ميسرة مناسبة للطفل حسب عمره، وقد أكدت الأبحاث أن المرحلة الذهبية لامتلاك الطفل اللغة هي مرحلة السنوات الخمس الأولى؛ حيث تتشكل لديه عوامل امتلاك اللغة، ويصبح قادرا على التحدث باللغات التي تعرض له في ذلك الوقت، في حين أن المرحلة العمرية من ست إلى ثماني سنوات هي مرحلة تعلّمه القراءة والكتابة بشكل محدود، أما المرحلة من ثمان إلى عشر سنوات فهي مرحلة تعلّمه القراءة بشكل جيد، حيث يتسع قاموسه، ويُسمَح له بتقديم قصة كاملة موضحة بالرسوم، ثم يزداد هذا القاموس، فيسمح له بالقراءة بشكل أكبر في المرحلة العمرية من عشر إلى اثنتي عشرةَ سنة، ثم تأتي المرحلة التي يمتلك فيها الطفل القدرة على فهم عمل قصصي مقدّم له بالفصحى، وهي المرحلة العمرية من اثنتي عشرة إلى خمس عشرة سنة، وفي هذه المرحلة ينبغي أن تتسم اللغة بالجمال والذوق الأدبي من خلال استخدام الصور الحسية والأخيلة البلاغية والمحسنات البديعية، فكل ذلك يجعل العمل الإبداعي محببا للطفل. انظر للباحث: أثر الإبداع القصصي في تكوين الوعي الثقافي لدى الطفل. بحث منشور في كتاب نادي مكة الأدبي عن ثقافة الطفل.

٣٣ انظر: د.جابر قميحة: أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في اللغة العربية. من إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي - الكتاب رقم ١٠٥ مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم) بجدة ط ١٤١٨هـ .

٣٤ انظر: سالم المعوش : دور اللغة العربية في بناء المجتمع العربي وتطوره. بحث منشور إلكترونيا ٢٠١١